الفصل الثالث
العسكري الأسود

١- سحق الآدمية .

٢- تخريب الإنسان .

٣- سيكولوجية المعذب .

٤- لقاء الثأر.

٥- الصدع .

obeikandl.com

obeikandl.com

تكاد تجمع كل الأعمال الفنية على اختلاف أنواعها ومسمياتها على التأكيد على قيمة واحدة والإعلاء من شأنها ألا وهي قيمة الإنسان . بل كل نشاط فكري أو عملي لا يستهدف تلك القيمة فهو نشاط أجوف لا جدوى منه ، بل لا تقاس الحضارات البشرية إلا بهذا المقياس . فإذا كانت كل أنشطتها ومضامينها متفرعة من هذا الأصل فهي حضارة إنسانية قلبا وقالبا . أما إذا كانت تستبدل بتلك القيمة قيما أخرى . فهي ليست بالحضارة الإنسانية . وأطلق عليه أي اسم من الأسماء ... حضارة المال . حضارة المادة . إلاَّ أن تكون حضارة الإنسان .

سحق الآدمية :

ماذا يفعل الضرب التعذيب والسجن والتنكيل بالإنسان ؟

هل يسبب له نوعا من الألم الجسدي فحسب ؟

وإذا كان يسبب له ألما جسميًا . هل يترسب هذا الألم في عقل الإنسان فتجعل كل تصرفاته تتسم بالخوف والتردد ؟

التعذيب الواقع على الإنسان يخرجه من جنس الآدميين ليسلكه في جنس آخر لا صلة بينه وبين الآدميين . فهو يهتك كل تلك الصلات والعلاقات التي تربطه بصفة الآدمية ويمحو كل تلك السمات والملامح التي تسلكه في مسلكها .

وهذا ما وقع على (شوقي) الشخصية المحورية في الرواية . وأحداث الرواية تدور في أربعينات القاهرة . وشعور بالضعة والضياع يجسم فوق صدور الشباب المثقف . شباب الجامعات في تلك الفترة السوداء من تاريخ مصر . وعرض القاص حياة (شوقي) على فترتين :

الأولى : قبل دخوله السجن وتعرضه لعذاب العسكري الأسود .

الثانية :بعد خروجه من السجن .

فقد كان شوقي من زعماء الحركة الطلابية في الجامعة ، وكان من الثائرين على الوضع الذي تعيش عليه البلاد . وكان يؤمن بمجموعة من المبادئ يريد تحقيقها لتخليص البلاد مما تعانيه ، وربما هذا هو السبب الذي جمع تلك الشخصية بالقاص ، (١٢) :

(ربما السبب في الصداقة المهيمنة الكبيرة التي جمعتنا أننا كنا نؤمن رغم اختلاف طرقنا ووسائلنا – أن لنا رسالة واحدة نحن مبعوثو العناية لتحقيقها وإنقاذ بلادنا وتغيير مصير شعبنا تغييرًا جذريا وإلى الأبد . وهكذا بدأت واستمرت علاقتي بشوقي) .

فقد كان (شوقي) يحمل رسالة . أو هو يضع مصلحة بلاده في المقام الأول مثل كل شاب وطني مخلص يسعى نحو هدف يحقق لبلده الحرية والتخلص من كل أغلال الاحتلال والتخلف . وكانت لديه الإرادة والتصميم والقوة لتحقيق ما يحلم به وما يصبو إليه (١٤)

(فقد كان (شوقي) يتمتع بطاقة إرادية هائلة . وكأنه ولد وهو يعرف بالضبط ما يريد ، ومتأكد أنه واصل إليه لا محالة . وكان يبدو وكأن إرادته تلك ترسب إيمانه في قلبه طبقة فوق طبقة . وكل يوم تزيد عمقا وتشعبا بطريقة فمال معها من أن يتزلزل إيمانه ذلك بإيمان جديد) .

obeikandi.com

إذن (شوقي) لديه كل مقومات الإنسان الذي وضع لنفسه هدفا يعمل جاهدًا لتحقيقه ، ولديه القوة والإرادة ليحقق هذا الهدف ، وليس بالهدف الذي يتسم بالذاتية أو الأنانية ، وإنما هدف لمصلحة البلد أولاً وأخيرًا .

تلك هي صفات (شوقي) قبل أن يدخل السجن ويتعرض لما تعرض له .

وبعد أن أُخرج من السجن ، وعُين في المكتب الطبي للمحافظة مع القاص اكتشف القاص هذا التغيير الذي قلب شخصية (شوقي) رأسا على عقب ، أما سبب هذا التغيير وما الذي حدث في السجن فيرجئه القاص إلى آخر القصة . فقد تغيرت نظرات (شوقي) عنها قبل أن يدخل السجن ، (وكان أول ما لاحظته أن نظرته اكتسبت طابعا آخر لم يكن لها كأن في عينه دائما بريق يشع ويكسب ملامحه جاذبية خاصة ، جاذبية المؤمن بحقيقة تضيء نفسه ، وتفضح ملامحه الضوء الداخلي واشمه ويتركز النور في عينه ، وينقل للعالم صورة نفسه المؤمنة . ذلك البريق كان قد اختفى وكأنما اجتثت من جذوره ، ولم يبق لعينه اللمعة التي تميز عيني كل كائن حي . كنت كلما نظرت في عينه أحس بإحساس غريب خاص يضايقني أي لا أستطيع إدراك كنهه ، وأني لي أن أعرف أن استطيع أن أدرك كنه ذلك الإحساس إلاَّ هناك وبعد أعوام طويلة في زمان ومكان كان مستحيلاً أن يخطرا على البال) .

ثم أدرك أن صوته قد تغير . الكلمات خائفة ترتعش تحرص على ألاَّ يحدث صوتا حتى صوت نبرات الحروف وهو لا يرى إلا ما أمامه فقط وكأن نظراته قد صنت صما وكأنه لا يعيش إلاَّ لنفسه ، فهو لا يريد إلا أن يرى موضع قدميه أمَّا

ما حوله فهو لا يهتم بهم (ذلك الذي كان لا يهتم إلا بما حوله ، المتمرد الثائر أصبح كالحمل الوديع يمضغ العشب في صمت وسكون لا نهاية له) .

(ثم بدأت أعي أن صوت (شوقي) قد تغير فأصبح لا يتحدث إلاّ همسا همس مؤدب خافت كمن يتوقع دائما أن يرفض طلبه ...ثم هاتان النظارتان لا أقصد النظارات الطبية ، أقصد تلك التي تركب للخيل لكي لا ترى إلاّ في اتجاه واحد هاتان النظارتان الخفيتان اللتان لا تجعلانه يرى إلاّ ما أمامه ، وما أمامه فقط ، أين هذا من (شوقي) المتلفت دائما حوله ،الباحث المنقب في كل شيء من أمور الدنيا والناس ، الغاضب الثائر إذا وقعت عينه على الخطأ ، المهدد بالويل والتغيير وإخضاعها لما يريد ؟) .

وبدأ الخوف يعيش داخله ، وينسج خيوطه السوداء على أفكاره وأفعاله يخاف من كل شيء يواجهه ، يصنع قوقعة يحيطها حول ذاته ، فقد أصبح كائن رخو سلبت منه الإرادة ، وكل ما يعطيه القوة ليتحمل وجوده وضربات هذا الوجود (٣١) (إذا كان أخوف ما يخافه أن تحل الكارثة مرة فيخطئ في حق لائحة من اللوائح أو قانون من القوانين، هو الذي هذا عدوا لكل قانون أصبحت المسئولية هي عدوه الوحيد اللدود يفعل المستحيل ليتجنبها ، ومستعد أن يسير أميالاً إذا كان في السير ما يجنبه قفزة واحدة يتحمل فيها درهم مسئولية ...إلى درجة كان يحيل فيها أحيانا أنه يود لو يشفى حسده ويشفى حتى يصبح كائنا أثيريا لا يتحمل مسئولية إيجاد مكان له فوق سطح الأرض ، أو نطرة يلقيها عليه إنسان ومع هذا تعجب لتمسكه بالحياة ونهمه إلى الدنيا بطريقة يكاد معها أن يبتلعها لو استطاع داخل جوفه) .

لقد أصبح كائنا معقدا لا يستجيب استجابات واقعية لمؤثرات العالم الخارجي ، وإنما استجابة خاضعة لنفس كائن حطمت داخلة بوصلة الاتزان ومؤشر العقل ، ليحل محلها الخوف من كل شيء وعدم الأمان لكل شيء . (٤١) :

(وجوده انحصر كله وتآزر ليحقق هدفا واحدا ، كيف يهرب من كل شيء حوله ، فالوقوف يعرضه لشيء لا يعلمه ولا يعرفه ، فلم يعد داخله ذلك (الكنترول) الذي يضبط ويحكم تصرفات وأفعال الإنسان ، إنما يريد أن يحقق كيانا ذاتيا خوفا من تحطيمه وهتكه ، وكأنه حيوان هائم في غابة لا يريد أن يترك أثرًا كي لا يكون دليلاً عليه أو مرشدًا يقود الآخرين إليه ، إنه يهرب من أن يكون إنسانا وكل تصرفاته وأفكاره تتمركز في بؤرة واحدة هي كيف يمحي صفته الآدمية فهو يعيش متخفيًا أو متنكرًا لا يعيش نفسه ولا يحي ذاته) .

(هناك حيث تدرك أن شوقي وإن ظل في ظاهرة بشرا ، فهو في حقيقته لم يعد ينتمي إلى البشر ولا إلى أنواع الآدميين المتعارف عليها من عقلاء أو مجانين أو شواذ ، باستطاعتك أن تقول أنه خرج ليكون نوعًا جديدًا قائمًا بذاته ، إذا قد خرج ليحيا بدافع جديد تماما على الجنس البشري ...فهو لا يحيا لتكاثر أو يبقى أو يتطور وإنما دافعه للحياة كان أن يهرب ويضر ، وكأنه لم يعد يرى في الجنس البشري كله سوى جن وعفاريت همها أن تنقض عليه وتعقره وتفتك به هم جميعا شياطين ، وهو وحده الإنسان ، أو هم جميعا بشر وهو وحده الشيطان الذي يعادونه ويتربصون به ولن يهدءوا حتى يقضوا عليه) .

هذا الكائن الذي يزداد انعزالية عما حوله ، وجدار الغربة والوحدة يزداد سمكا وارتفاعا ليسجنه عما حوله ، يعيش مأساة حادة ، فهو مجبر وهو يقف هذا الموقف الذي صهرته نار الخوف والرعب من الآخرين على أن يحيا معهم وبينهم (٤٢) : (ومأساته كان أن عليه أن يظل يحيا على ظهر الأرض مع هؤلاء الذين يخاف منهم ويرهبهم عليه أن يعاملهم ويتصرفوا في أمره ويتصرف في أمورهم ويصادقهم ويزاملهم ، هو الذي ينتفض رعبا منهم) .

حركة مستمرة لا تكل نحو التقلص والتقوقع ، والانحلال والذوبان ، يخاف من ذاته من وجوده ، أخشى ما يخشاه هو التواجد ، يريد أن يكون هلاميا ، كائن أثيري ، لا يراه أحد ولا يشعر به أحد ، (٤٣) . (ويبني حياته لا عن طريق أعمال يضعها فوق بعضها ليكون هرمًا شخصيًا ولكنه يبنيها إلى أسفل ...وحفرها تحت الأرض بجحور متشعبة ملتوية معقدة كلما أحس في حجر فيها بخطر وافر وانطلق يكون حجرًا آخر ...إنه يعرفك ويقيم معك الصداقة أو الزمالة إمعانا في الهرب منك ويحادثك أطراف الحديث ليلهيك عن نفسه ، ويرافقك أو يصنع معك المعروف لكي يرشوك ويتزوج كي يهرب من مسئولية عدم الزواج ويعمل في قومسيون طلبي المحافظة لكي يفر من التوليس والمباحث حتى ولو مكان الفرار إلى قلب التوليس) .

تخريب الإنسان :

ولكن ما الذي تعرض له (شوقي) في السجن ليجعله كائنا غريبًا كل الغرابة ومنبت الصلة عنه عما كان قبل دخوله السجن. فالبشر يدخلون السجن ويخرجون منه كما دخلوا ، وإن أصابهم نوع من التغيير فهو تغيير لا يحيلهم أي كائنات غريبة هكذا .

فقد يتلقى الإنسان الضرب ، ولكنه لا يشعر به وإن شعر فهو شعور طفيف ولكن هذا إذا كان لديه حرية الرد أو حرية الدفاع عن النفس ، تلك الحرية تمثل خط دفاع ذاتي يحفظ على الإنسان كيانه ويحفظ عليه آدميته أن تسحق وكل ما يتعرض له يكون هين التأثير إذا كانت حريته موفورة له ، وكل شيء هين يكون له أضخم التأثير إذا كانت حريته مسلوبة فهو يتلقى ما يتلقاه وهو إنسان .

أما إذا كان مسلوب الحرية ، فهو ليس بإنسان وكل ما يتعرض له يؤكد على هذا المعنى ويزيد من خروجه من دائرة الإنسانية ومركز البشرية ، فكل ما يتعرض له من ضرب وتعذيب هو نوع من التخريب والتدمير لمقومات هذا الكائن الراقي انفجار داخلي حينما لا يجد الغضب والثورة قنوات ليخرج من ذات الإنسان ينفجر في الداخل ليدمر مراكز الإنسانية داخل الإنسان ولا يبقى إلا الشكل الخارجي للإنسان .

(٥٠) : بالاختصار أنت لا تشعر بالضرب حين تكون حرًا أن ترده ، أنت تشعر به هناك حين يكون عليك فقط أن تتلقاه ولا حرية لك ولا حق ولا قدرة لديك على رده ... هناك تجرب الإحساس الحقيقي للضرب بألم الضرب لا مجرد الألم

الموضعي للضربة أو الألم العام الناتج عنها إنما بألم آخر مصاحب أبشع ...أقوى من ألم الإهانة حين تحس أن كل ضربة توجه إلى جزء من جسدك توجه معها ضربة إلى كيانك كله وإلى إحساسك وكرامتك كإنسان ضربة ألمها مبرح لأنها تصيب نفسك من الداخل إصابة مباشرة .لا يحجبها أو يخفف منها جلد أو عظام أو حرية أو حق الإنسان أن يتصرف كالإنسان ويرد . وهذه كلها جروح لو تعلمون عظيمة . أن حرية الإنسان ...حقه أن يرفض أو يقبل أو يرد الاعتداء جزء لا يتجزأ من جسده وكيانه ولحمه وجلده وأنسجته الواقية الحية وليست ملابسه أو جدران بيته التي تحفظ عليه ماء حياته كإنسان وتحميه وهي التي إذ انتزعت منه لا يموت كما يحدث للسلحفاء إذ أنتزع غطاؤها .ليته كان يموت ولكنه يبقى إنسانا منزوع الحق في حماية نفسه والدفاع عنها فما بالك إذا كان يُرغم على أن ينتزع هو بنفسه هذا الغطاء وتجبره القوة الغاشمة على السكوت على تلقي الألم والسكوت . على التنازل عن إنسانيته وحتى عن خصائص الحيوان . حين يستحيل إلى كومة عارية من لحم الخائف مدعور لا تستطيع أن تعض أو ترفس ن عليها أن تتلقى الألم وتسكت عليه ن والسكوت على الألم أشد إيلاما من الألم من الألم نفسه خاصة إذا كنت أنت من تتولى إسكات نفسك ... هذا النوع من الضرب حين لا يبقى أمامك لكي تمنع ألمه وعاره إلا أن تحتمل وتصبره أو تقتل نفسك وتنتحر . عمل لا يستطيعه ويقدر عليه معظم الناس . حتى إذا قدروا فقانون الحياة نفسه يرفضه ويمنعهم من إتيانه . إذ كيف يعقل وأنت في موقف تدافع فيه عن نفسك ووجودك أن تشرع في قتل نفسك ومحو وجودك ؟ بالعكس . إن أبشع ما في الأمر أنك لا تحتمل فقط وتصبر . ولكنك تزداد استمساكا بالحياة وتصل بك حلاوة الروح إلى درجة مخجلة

في شدتها وقوتها وهكذا في مقابل ضربة هائلة الألم عارمة القسوة مهينة تتلقاها من الخارج تنهال عليك من داخلك . ألف طعنة ألف إحساس مخجل مهين تمزق أحشاءك وتذيب كماء النار روحك لأنك لا تحدث ولا تريد الموت ولا تزال حيا تتمسك ذليلا بالحياة) .

وأن يحتمل الإنسان الضرب أو يتلقاه هو نوع من الدفاع عن النفس وقوة هائلة وإرادة صلبة ن تلك التي تنبثق في نفس الإنسان حينما يتعرض للضرب والتعذيب . تلك القوة والإرادة هي دفاع داخلي لا إرادي لمقاومة الهجوم والاعتداء الخارجي الواقع على الإنسان . سمها حلاوة الروح . حب الحياة والتمسك بها ولكنها لا يكتشفها الإنسان وأنه مزود بها إلاَّ وقت انبثاقها . فهي كائنة لا تظهر إلاَّ في هذا الوقت . قوة الكائن الحي . وإرادة الحياة ...أقوى إرادة في الكون . واقوى قوة تأخذ بنواصي الأحياء في هذا الكون .

وتلك القوة مصدر عذاب آخر للإنسان . إذ ما فائدة وما جدوى التمسك بتلك الحياة . وأي نوع من تلك الحياة وداخل الإنسان يخرب ويقتل أثمن ما يملكه إحساسه بآدميته .

أمَّا سوط العذاب الذي دمر وخرب (شوقي) فهو العسكري الأسود أو (عباس محمد الزنفلي) وهو شخصية قائمة بذاتها ويصلح أن يكون رمزا للقوة التي تستهدف في المقام الأول تدمير الإنسان . فعلاقة (شوقي) بعباس الزنفلي علاقة المعذب بمعذبه . أو علاقة المخرب بمخربه . علاقة معقدة غاية التعقيد .

وكان أول لقاء بينهما بعد خروج شوقي من السجن . ووصول ملف خدمة (عباس) لتوقيع الكشف الطبي لإثبات عجزه تمهيدًا لفصله من الخدمة . وكانت أول جملة تقال في حق عباس على لسان (عبد الله التمرجي) الذي يعمل في المكتب الطبي مع (شوقي) . : (ده خلاص يا بيه ...الرجل بقى يهبهب زي الكلاب ويهوى زي الديابة) .

وحينما عرف (شوقي) أن (عباس) هو العسكري الأسود . سوط عذابه كاشف عبد الله التمرجي والقص ذلك . حينما كان عبد الله يقص عليهما بعضا من صفات عباس . (٥٥) . (وكان جبار ... أعوذ بالله ...والله يعيني دي شفته قفلوا عليه الأوضة اللي في الدور التاني بتاع المحافظة اللي قصاد المكتب الطبي في الدور الثاني على طول هو وواحد من السياسيين . وقعد يضرب فيه من صباحة ربنا والجدع يقول أي ! ..ولا هو سائل فيه .ولغاية ما روحنا الساعة خمسة وشوفك سبناه بيضرب فيه) .

بعد ذلك اعترف شوقي للقاص عن اسم المضروب . يقول : (أنت عارف الي كان بيضربه العسكري الأسود في المحافظة ده م الصبح للمغرب عارف مين ....

- كنت أنا .

وكأن فرصة العمر قد لاحت لشوقي ليتقابل مع تلك القوة العمياء . القوة الغاشمة التي دمرته وجعلته أطلالا . فبالرغم من إصرار عبد التمرجي بأن يترك شوقي الحالة للحكماشي . ولكن شوقي أصر على الذهاب إلى عباس ليوقع عليه الكشف الطبي .

أما عباس الزنفلي فقد نشأ قويا متفوقا على كل أقرانه ، وطارت شهرته وصيته في بلدته ، وبعد أن انتهي من تأدية سنوات الجهادية تزوج من ابنة عمه (نور) ونزح بها إلى مصر ،وإذا كانت حياته الوطبفية قد شابها كثير من الاضطراب والتنقلات والجزاءات في أول الأمر ، فقد استقرت ومنح ترقيات وعلاوات استثنائية ، هذا بعد أن أعجب بقوته رئيس الوزارة ، وأخذه ليصنع منه سوط عذاب لخصومه السياسيين ، وتفانى عباس في تأدية واجبه تفانيا عظيما فقد كان آلة تعذيب أحكمت صناعتها ، فهو إذا سلط على أحد لا يتركه إلاّ بعد أن يتدخل اثنان يقاربنه في القوة ليستخلصوا ما بقى من ضحيته ، وأصبح رمزا لعود الإرهاب والعصف والتنكيل .

وعش عباس في هنية من العيش الرغد الزاخر ، وأصبح محاطا بالمريدين وأصحاب المصالح والمتملقين ، وكان يسهر معهم إلى ساعة متأخرة من الليل ، ولكنه يتحول إلى شخص آخر حينما يفرد نفسه . (٧١) :

(إن عباس كان حين يذهب عنه الأصدقاء والزوار ويصبح البيت خاليا إلاّ منه ومنها ويذهب عنه المرح والضحك الذي كان غارقا فيه ، ويستمر على جلسته المتربعة منكس الرأس إلى أسفل شاردًا في حزن مفاجئ لا تعرف سببه يبقى هكذا بالساعة والساعتين لا يتحرك ولا يحدثها ولا يغير من وضعه ، وإنما كان يخرج بين كل حين طويل وحين أن يرفع رأسه فجأة مستلا من صدره تنهيدة عميقة قائلا :

- إيه ...حكم ! ثم يعود رأسه يسقط ويعود إلى الحزن الشارد الذي كان فيه)

مواجهة مع النفس ن يتذكر فيها الإنسان كل ضرر ألحقه بالآخرين .

سيكولوجية المُعذب :

إذا كان هناك ضرر واقع على المُعذب ، فسوف تصاب شخصيته بالكثير من التدمير والتخريب ، ليحيله إلى شخصية منبتة الصلة بالإنسان السوي ؛ لأنها طمست كل الملامح الداخلية التي تميز الإنسان عن غيره من بقية الكائنات ، فإن الضرر يلحق بالمعذِب أيضا .

ففي نفس اللحظة التي يقتل فيها القاتل فلانا من الناس يكون قد قتل نفسه أيضا ، لأنه بارتكابه هذا الفعل (الجريمة) قد خرج أو أُخرج من عداد الجنس البشري ، القاتل أيضا مقتول ، والقتل هنا تم بيد القاتل نفسه ، لأنه هتك القيمة الآدمية للإنسان ، ليس لإنسان منفرد بالذات وإنما لكل إنسان على وجه الأرض وهو – القاتل – داخل هذا الحصر ، فالقاتل لم يقتل ذاتا إنسانية فحسب ، وإنما أوجد صدعا لقيمة تمس كيان وكرامة ووجود بني الإنسان جميعهم ، وهو من أولهم وهذا ما حدث لعباس الزنفلي ، فقد مر بالأطوار التي مر بها شوقي ، فقد تغير ولم يعد هو عباس الذي تعرفه زوجته (نور) عين المعرفة ، وأصبح يهوهو ويهيهب وأراد القاص أن يعطي للتغيير والتحول المعنوي الذي انتاب نفس ومشاعر عباس أراد أن يعطيه أبعادا مادية لكي يزيد من أثر التحول ، فأعطى بعض صفات الحيوان المتوحش ، أو الكلب لعباس ، وكما تعود على تعديب وتدمير الآخرين فستدار في نهاية الأمر على نفسه ليدمرها ويخربها .

لوم وتأنيب وتقريع من الجزء الحي الباقي فيه ، فمهما كانت قوة الإنسان في إخفاء هذا الجزء ، وتغليب وتعظيم الجانب الشرس في شخصيته ، إلاّ أنه في لحظات يضعف وتخور قواه ليسطع هذا النور ، نور الضمير ، وتبدأ عملية حساب

عسير، محاسبة الإنسان لنفسه . وحينما يحاسب الإنسان نفسه . فهو من أغلظ القضاة أكبادا ... وهذا ما كان يشعر به (عباس) حينما ينفرد بنفسه . وليس هناك من سبيل للنجاة من ذلك الحساب إلا بالهرب ... ووجد (عباس) الأفيون والحشيش خير منجاة من العذاب وتأنيب الضمير . والمرحلة التي كان عباس يمر بها تشكل لغزا لزوجته (نور) . فهي لا تدري ما سبب تغيره هكذا . وكل ما تعرفه وتستيقنه أنه لم يع (عباس) . لقد أصبح شخصا غريبا عنها . لا صلة بينها وبينه حتى الفراش لم يعد يجمعهما حتى ظنت أنه ممنوع عنها : (٧٥) :

(إن عباس لم يعد عباس . لقد أصبح رجلا آخر لم تره أبدا ولم تعرفه ... رجلا آخر بطبائع ومزاج آخر .... غريبا لا تحس أبدا أنه زوجها الذي تزوجته ومن الواضح أنه هو أيضا . وقد عادى كل من كان يعرفهم وتغير ولم يكن قد تبقى سواها بجانبه . وكان واضحًا أنه بدًا هو الآخر يستغربها وينكرها ولا يرعى لها شعورًا ولا يهتم من أين تنفق أو كيف تدبر الأمور ...(أم على الحسادة) تقول لها أن الأفيون قد غيره . ولكنها هي العليمة الخبيرة به تعرف أن الأفيون وضيق خلقه وشروده ونفوره من الناس عرض وليس سببا . السبب أكبر وأبعد من أن تستطيع وحدها إدراكه . لقد كانوا يحيون ككل خلق الله في أمان . فماذا حدث ؟ قالت لنفسها أنها العين وعين أم على بالذات .وأخذت من (سملها) ورقت وبخرت وقالت أنه عمل ودهبت لشيخ العمولات ودفعت الأجر وذبحت الديك الأسود وجربت كل علاج ودواء . وحالة لا تسير إلا إلى أسوأ خاصة هجره لها في الفراش ودلك الذي طال وطال حتى اعتقدت أنه ممنوع عليها بسحر . التمست فكه وفكته

وظل مع هذا ذلك الشخص الغريب الذي لولا الشبه الذي لم يتغير لما عرفته وظل هو يبعد عنها ويبعد ولا يكاد يحس بوجودها) .

إنه معزول عما حوله . وكأن منفذ وجوده سدت . وصدره ضيق كمدا . فهو يتجرع العذاب أضعاف ما أذاقه لمن عذبهم . إنهم يلاحقونه في ليله ونهاره وصميره لا يتركه يهنأ . لقد فعل ما يعاقب عليه . ولابد أن يعاقب نفسه على ما فرط في حب الآخرين . (٧٧) . (كان عباس يبدو كمن جُن . يصحو صارخا مرعوبا إذا نام . وإذا أنفرد بنفسه تجده فجأة قد انهال عليها – على نفسه – شتائم وسباب نفس شتائمه ذات الألفاظ الداعرة . بل رأته مرة ينهي شتائمه لنفسه بصفعة من يده يبوي بها على وجهه وقررت يومها أن لابد من التعجيل بالفرار) .

فهو وجود مدنس سعى جاهدا إلى تطهير نفسه بنفسه . ولا يجد إلى ذلك سبيلا سوى إنزال العقاب على نفسه عسى أن يخفف ذلك مما يعانيه من عذاب ولوم نفسي حاد .

لقاء الثأر :

والتقى شوقي بعباس . ولكنه لقاء يختلف عن ذلكم اللقاء الذي كان يحدث في الماضي . ففي الماضي كان اللقاء يحدث في السجن . لقاء تخريب وتدمير من عباس لشوقي ، أما في هذه المرة . فاللقاء يتم في بيت عباس . بين مريض وطبيبه ولكنه كان أبعد ما يكون عن لقاء الأطباء بمرضاهم .كان لقاء المقتول بقاتله .المخرب بمن حربه . لقاء وجد فيه شوقي بعض العزاء لما سببه له عباس . هذا النوع من العزاء والراحة التي يشعر بها الشخص الموتور بأن خصمه قد نال جزاءه وكأن شوقي كان مقتولاً ، وحينما رأى عباس رُدت الحياة إليه مرة أخرى:(٨٤) :

(إذن في تلك اللحظة بدا وكان شوقي القديم ...شوقي الثائر قد دبت فيه الحياة من جديد وصحا وكأنه كان ميتا . محنطا في مكان ما في جسده)

لقاء أغرب ما فيه أن شوقي يقف على قدميه وعباس طريح الفراش ، وعندما تحدث (شوقي) مع عباس تحدث معه بعنف وفظاظة حتى أن زوجة عباس (نور) والقاص تدخلاً خوفا من أن تمتد يد شوقي إلى عباس . وكان عباس يجهل شوقي . أو هذا ما توهمه شوقي . فآل على نفسه تذكير عباس بكل شيء . بالكائن الإنساني المخرب . بأطلال الإنسان . الذي يسير على قدمين ، وقل شوقي صوت ينزع معاني الألم والتمزق والحقد والغضب والإنتقام ، (٨٨) : (ما تستعبطش ...ما تعملش أنك ناسي ...مش فاكر العنبر ؟ مش فاكر عُلق الساعة خمسة ؟ مش فاكر دور تسعة ؟ مش فاكر النبابيت ؟ مش فاكر الكرباج ؟ مش فاكر الدم ؟ فين كرباجك وديته فين ؟ فين صراخك يا وحش فين ؟ فين نعل جزمتك الحديد ؟ فين كفك ؟

Obeikandl.com

فين صوابعك ؟ فين النار فين ؟ بص لي وانطق وأتكلم اصرخ زي زمان ....سمعني صوتك اصرخ يا عسكري يا أسود بص لي وانطق وأتكلم وصرخ ....ما تملش ناسي وإن عملت أفكرك ....حالا أفكرك . ولا أعرف كيف استطاع شوقي في تلك الومضة المتناهية الصغر من الزمان أن يخلع جاكتته وقميصه ويرفع فانلته ويكشف ظهره ويا لهول ما وقعت عليه أبصارنا لم يكن في ظهره مكان واحد له شكل الجلد أو مظهره . كل جلده كان ندوبا بشعة تمتد بالطول والعرض وتتجمع في هضاب مندملة عن مناطق غائرة في قاعها نكاد تبدو عظام الضلوع . مشهد بشع يجعل القشعريرة تسري في جسدك لا لمجرد مرآه وإنما لتساؤلك عن القسوة المتوحشة التي أحدثت كل ما تراه . لكأن دنيا محنونا أو غولا قد أعمل أنيابه وأظافره في ظهر شوقي نهشا وتقطيعا وفتكا) .

ولم تعد عضلة في جسد شوقي لم تنفجر بالغضب والثورة . تصرخ بكل هذا الألم الذي هتكها ردحًا من الزمن وظلت تعاني منه .وشارك الأعصاء في الصراخ العظامُ والعروق والدم . أصبح شوقي كتلة نار من الصراخ والحقد .هذا الصراخ استحال إلى عواء حقيقي . ألم يتحول شوقي – من خلال العذاب الواقع عليه – إلى حيوان يتلقى العذاب والألم في صمت قاتل وسكون مميت .

وكأن عباس وقد رأي ما حنت يداه محسدًا أمامه . فأراد أن يهرب . وليس هروب من مكان إلى مكان آخر . ولكنه الهروب من الوجود . نفس الهروب الذي كان يحاوله شوقي . أن يقلص وجوده ويظل يتقلص حتى يختفي أو يذوب في الأثير (٩١) (أما عباس فقد ظل يسكب على شوقي نظراته الميتة ولا يتحرك له جفن ولكن ما كاد صراخ شوقي يستحيل إلى عواء حتى رأينا كأن بارقة إدراك قد

تحركت فوق سطح العيون الميتة أعقبتها في الحال اهتزازات عاصفة لم تلبث أن تكشفت عن نظرة ذعر راحت تتعمق وتتعمق وتصبح رعبا هائلا مقيما ، رعبا جعل الحياة تدب أيضا في الجالس المكوم نصف جالس وتدب على هيئة خوف ، فبدأ ينكمش على نفسه وينكمش ويزحف بزوجته بعيدًا إلى آخر الفراش ، ويصغر حجمه ويتكور ولم أكن أتصور أن الإنسان في انكماشه يستطيع أن يصل إلى هذه الدرجة من الصغر ، الدرجة التي تكاد تعتقد معها أنه لو استمر ينكمش بنفس السرعة لتلاشى واختفت الكرة الإنسانية عن الوجود ...وربما رغبة هذا وانكماشه هو الذي جعل شوقي يطارده ويتقدم في اتجاهه ويتضخم كلما رآه وينكمش ويقترب كلما ابتعد ، مطاردة لم يوقفه الفراش فقد ارتقاه شوقي واستمر يتعقبه ويصرخ فيه ويعوى ولا يكف ، وربما رعبه الهائل هو الذي حال من ناحية أخرى بين شوقي وبين الانقضاض عليه وإزهاق روحه) .

ولم يتذكر عباس شيئا إلاّ حينما سمع عواء شوقي ، كأن العواء هو المفتاح الذي فتح أبواب عالم عباس ، عالم الكلب والذئب وكل تلك العائلة من الحيوانات الضارية المتوحشة ، من الحيوانات التي لا تتورع أن تنهش لحم بني جنسها بل به ، عالم الضارب فيه ذئب يجد لذته ومتعته في التدمير والتمزيق والتخريب والمضروب فيه أفضل أنواع الحيوانات ، فهما لا يفهمان غير العواء لغة ، والهيهة معنى ، وارتفع عواء وهيهة عباس ، بل استطال فمه وكأنه أصبح فم ذئب شرس وأصبح ذئبا حقيقيا يود الافتراس ولعق الدماء ، وبالفعل يفترس أقرب الناس إليه زوجته ، (٩٢) : (أطبق الفم المفتوح على يد الزوجة القريبة منه ، وبدأ يلوكها بين أسنانه ويضغط كمن يهم بالتهامها واحتملت الزوجة قليلا وهي ترجوه أن يتركها

ولكننا وجدناها فجأة - وكأنما أدركت أن يدها على وشك أن تتمزق - تطلق صرخة أعلى من كل عواء وهدهبة تعقبها بصرخات سمعنا على أثرها دق الجيران على الباب) .

وحينما لا يجد ما يفترسه يفترس نفسه ، وإن كان قد افترس نفسه من قبل حينما اعتدى على إنسان وأخرجه من جنس الآدميين بتعذيبه ، وأنزله إلى درك الحيوانية . وقيام عباس بتعذيب نفسه ، هو نوع من عقاب الذات للذات ، على ما أنزلته من عذاب بالآخرين ، فهو لم يعد يطيق هذا الوجود المسمم بنار الذنب والمشتعل بتأنيب الضمير ، (٩٣) :

(لولا أن عباس أهوى بفمه على لحم ذراعه النحيلة التي كانت تبدو من كم الجلباب الممزق ، وظل يضغط وينظر إلينا بعيون ملتهبة تحترق ، ويضغط ولعابه قد غطى الذراع العارية ومن كثرته بدأ يتساقط ويسيل ، وهو لا يكف عن النهش والضغط وكأنما هو لا يحس أو يتألم أو كأنما الألم يدفعه إلى مزيد من الهياج وغرس أسنانه في اللحم وكان لابد أن يحدث ما حدث وأن تدير النساء وجوههن وأن ندير وجوهنا معهن . ما عدا شوقي فقد لمحته لا يستدير وغنما يظل يتفرس في وقفته مستمتعا بما يراد . وحين عدنا مرة أخرى نواجه عباس تبين أننا لم نكن قد تحاشينا الكثير باستدارتنا . فقد وجدنا وجهه قد ارتفع عن الذراع حقيقة ، ولكن الدم كان يتساقط من فمه ويختلط بلعابه إذ بين أسنان الفم التي كانت انفرجت عنها الشفاة كانت هناك قطعة لحم مدماة . القطعة التي نجح في نهشها من ذراعه . ذراعه التي كانت لا تزال في مكانها فوق ركبته ، ومكان العضة فيها قد أصبح جرحا متهتكا بشعا . وكان عباس الزنفلي لا يزال رغم وجود قطعة اللحم

opeikandi.com

بين أسنانه يعوي ويهبهب بصوت مكتوم وكأنه ينزف من صوته والدم قد بلل عوائه وخنقه) .

وكان – ما أصاب عباس – جزاء وفاقا لما أوقعه بشوقي وبغيره ، فقد هان عليه أكل لحم الآخرين ، فهان عليه أن يأكل لحمه (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ، وكما قال شوقي للقاص بعد ذلك وكأنه أدرك هذا القانون الأزلي ، (٩٥) : (أتعرف أنك حين تؤذي غيرك تؤذي نفسك دون أن تدري ؟ ومرة يسرح ويضحك فجأة ويقول : دع الضارب يضرب ، فيده التي تضرب تمتد أيضا إلى ذات نفسه) .

وكما قالت أيضا (أمر على الحسادة) أثناء خروج القاص والنمرجي وشوقي من حجرة عباس ، (٩٧) : (لحم الناس يا بني .....اللي يدوقه ما يسلاه ....يفضل يعض إنشاء الله ما يلقاش إلاَّ لحمه ، ألطف يارب بعبيدك) .

الصدع :

الإنسان لوح من زجاج ، قد يكسر ، ومع ذلك لتلملم لقطع بعضها إلى بعض وتعيد اللوح الزجاجي ، ولكنه لن يعود كما كان أبدا ، فهناك الذي لن يجبر فالإنسان كائن معقد ، ليس من اليسير فهمه أو إرجاع تصرفاته لدوافعه الأولية . إذا هدمت مقوماته الإنسانية ، وقوضت دعائمه البشرية ، فإعادة بنائه تعد من المحال ، وإن حاولت فتلك المحاولة مقضي عليها بالفشل منذ البداية .

وقد حدث صدع في شخصية شوقي .وكان يظن القاص أنه بعد أن شاهد شوقي ما حدث لعباس وما انتهى إليه الأمر أنه سيشفى مما به . ويعود ما كان في بادئ الأمر إنسان سوي له تطلعاته أهدافه ويستقبل الحياة بكل جرأة وإصرار ولكنه اكتشف أخيرًا خطأ ظنه وأن شوقي سيظل على ما هو عليه . (٩٦) : (وفيما عدا هذا كفتني بضع جلسات مع شوقي أن أؤمن أن الحالة التي رأيته عليها وملأتني بالأمل كانت كصحوة ما قبل الموت ، وأن ما حدث له من تغيير والكائن الجديد الغريب الذي أصبحه طريق لا يمكن الرجوع منه ، لا يمكن أن يعود الجلد الطبيعي مكان الندبات التي يحفل بها ظهره ، أجل ! أدركت ما فاتني إدراكه طوال سنين ...أدركت أن شوقي وقد فقد أمنه البشري مرة لن يعود أبدا متلنا بشرا مرة أخرى) .

وتلك الشخصية تحبا الحياة ، وكأن هناك قوة تدفعها لذلك ، بدون أن يجد لتلك الحياة غاية أو هدف ، لا يشعر بالوجود لا يستمرئ شيئا من طاقاته ، منعزلا عما حوله ، سلبي ، ل شيء يستثيره أو يحركه ، وكأن الوجود أمامه موات ، كما

مات الإحساس بالوجود داخله . فليس هو بالميت ولا هو بالحي . فقد وصل إلى منطقة انعدام الوزن . الموجود فيها لا يشعر بقوة تدفعه إلى الأمام ولا إلى الوراء ولا ترتفع به ولا تنزل . فقد سحقته تلك القوة العمياء التي لا تجيد سوى اغتصاب الحياة . وقذف الظلام والخوف والرعب في قلوب البشر .

obeikandl.com